

نحن والأدب الغربي من خلال "رسائل النور"

وقفة مع المنهج

يقتضي الحوار وجود طرفين اثنين، يتبادلان الرأي، وغالباً ما يكون الرأي المتحاور فيه محل خلاف، إن لم يكن محل نزاع، فإن انتهى الأمر بين المتحاورين إلى توافق كان ذلك إيذاناً بنهاية الحوار الذي يكون قد أدى ثمرته وأتى أكله. وقد ينتهي الحوار أحياناً إلى إفحام أحد الخصمين صاحبه، دون أن يعني ذلك أن التوافق قد حصل. وفي القرآن الكريم صور من الحوار، ومن ذلك ما جاء عن صاحب الجنتين في سورة (الكهف). قال تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٢٠﴾ كَلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴿٢١﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٢٢﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٢٤﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٢٥﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَلَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ ثَرْنَ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٢٧﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٢٨﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ

طَلَبًا * وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا * ﴿٤٣-٣٢﴾ (الكهف: ٤٣-٣٢)

فقد انتهى الحوار بين الرجلين وأحدهما مصر على كفره، سادر في غيه، فكان عاقبته ما حكاها لنا القرآن الكريم.

ومن صور الحوار القرآني أيضا ما حكاها القرآن الكريم عن إبراهيم عليه السلام والملك الذي طغى وكفر، ثم ما كان من الذي استعظم البعث، ثم الحوار بين إبراهيم عليه السلام وربه تعالى، كل ذلك في آيات محكمة موجزة مبينة. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَٰئِكَ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيُطَمِّنَ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * ﴿٢٦٠-٢٥٨﴾ (البقرة: ٢٦٠-٢٥٨)

على أن الحوار قد يكون بين شخصين حقيقيين، كما رأينا، وقد يكون بين شخصين اعتباريين، أو معنويين، وهنا لا يكون الحوار بين الأشخاص، بل بين الأفكار، وذلك بأن يجرد المحاور شخصا معنويا، يتصوره خصما فيجري معه

الحوار، وذلك كالأسلوب الذي كثيرا ما اتبعه أسلافنا، حين يعرضون الفكرة وما يضادها، وكأنك ترى الخصم ماثلا أمامك، وكثيرا ما كان ذلك الأسلوب يتخذ صيغة: "فإن قلتم قلنا".

وهناك صورة أخرى للحوار ذات وجهين: الوجه الأول يكون فيه الحوار خارجيا، وهو الحوار الظاهر المعهود بين الناس، يستوي في ذلك أن يكون الخصم حقيقيا أو أن يكون معنويا. وأما الوجه الثاني فهو الحوار مع الذات، وهو الحوار الداخلي، ويتولد هذا الحوار الداخلي نتيجة لما يعانيه الإنسان في ذاته من تضارب في الأفكار، وتباين في المواقف، في فترة من الفترات، أو أثناء المرور بأزمة من الأزمات. وكثيرا ما سجل لنا المفكرون والفلاسفة والمتصوفة ألوانا من هذا الحوار، ولا سيما حين يكون هذا الحوار مصورا لفترة حاسمة من حيواتهم، كفترة الانتقال من الشك إلى اليقين، أو الرحلة من الكفر إلى الإيمان. ومثل ذلك وجدناه عند الإمام الغزالي من القدماء، أو مصطفى محمود من المحدثين، ومثل ذلك أيضا وجدناه عند المهتدين الذين أسلموا من المستشرقين من أمثال محمد أسد "ليوبولد فايس"، وأتين دينه، ورونيه كينون، والمنصور بالله الشافعي "فنان مونتاني".

ونحن واجدون في سيرة بديع الزمان سعيد النورسي ألوانا من الحوار، ولا سيما حين نتتبع مراحل حياته الحافلة بالجهاد. ففي المرحلة الأولى من حياته كان هنالك حوار مع أشخاص حقيقيين، وعن طريق اللقاء العيني، وهي المرحلة الأولى من حياته، مرحلة الشباب، تلك التي كان يشعر فيها بنوع من الاعتداد الكبير بالنفس، حتى إنه وضع على بابه لافتة تقول: "هنا الإجابة عن كل سؤال، وحل لكل معضلة". وقد يكون هذا الحوار الحقيقي عن طريق الاتصال المباشر، عندما كان السائل يطرق باب بديع الزمان، فيسأله ويسمع منه، ويرجع بجواب لعله كان شافيا كافيا في معظم الأحيان، كما تنبأنا بذلك سيرته، وقد يكون

أحياناً عن طريق الأسئلة الكتابية التي كان يتلقاها بديع الزمان من بعض المتبعين لسيرته، والمهتمين بفكره، فيجيب عنها البديع جواباً شافياً، ومثال ذلك أسئلة القائد الياباني الذي وجه إلى علماء الإسلام بعض الأسئلة الدينية، فوجه علماء إستانبول هذه الأسئلة إلى بديع الزمان، فأجاب عنها.^(١)

وقد يكون البديع هو المتقدم بالسؤال، ومن ذلك مراسلته إلى الفاتيكان، وقد تلقى البديع رسالة من الفاتيكان تقول:

الفاتيكان ٢٢ شباط ١٩٥١

مقام البابوية الرفيع

السكرير الخاص

رئاسة القلم الخاص رقم ٢٣٢٤٧

سيدي، تلقينا كتابكم المخطوط الجميل "ذو الفقار بوساطة وكالة مقام البابوية باستانبول، وتم تقديمه إلى حضرة البابا الذي رجانا أن نبليكم سروره من هذه الالتفاتة الكريمة منكم، ودعواته من الله عز وجل أن يشملكم بلطفه وفضله، ونحن ننتهز هذه الفرصة لنبلغكم احتراماتنا.

التوقيع: رئاسة سكرتارية الفاتيكان^(٢)

أما في المرحلة الثانية من حياة النورسي، فقد غلب على بديع الزمان محاورة الشخص المعنوية، أو محاورة الأفكار، لا الأشخاص. وعلى هذا كانت مناقشات بديع الزمان لفكر بديع الزمان وأدبه، فيما سماه هو نفسه بسعيد القديم وسعيد الجديد، فقد شهدت شخصية بديع الزمان تطوراً وتحولاً في الفكر، حتى لكأننا أمام شخصين اثنين لا شخص واحد.

(١) سيرة ذاتية، ص ٦٨.

(٢) سيرة ذاتية، ص ٤٣٩.

وتلك المناقشات التي كان يسوقها البديع في إطار الحوار بين السعديين القديم والجديد تنبئ أننا أمام شخصية فذة واسعة الاطلاع على الفكر والأدب الغربيين، إذ الغرب الغالب هو المحاور والمحاور بالدرجة الأولى، ويدلنا على ذلك الاطلاع الواسع كثرة الاستشهاد بما عند الغرب من فكر وأدب، وحضارة ومدنية، وكثرة دوران أسماء الغربيين على لسانه. ومن أكثر الأسماء دوراناً في الرسائل، أفلاطون وأرسطو من الأقدمين، وكارلايل وكوته وشكسبير وديكارت من المتأخرين. ولم يكن رد النورسي على الغرب بمناع له على أن يستفيد من بعض ما أنتجته قرائحهم، بعد أن يقوم بتثذيبه وتهذيبه، ويخضعه لمصفاة الشريعة.

ومن أجل تبين موقف النورسي الأدبي ينبغي استحضار أمور منها:

١. أن النورسي لم يكن كلاً على الأدب، بل كان أديباً ومتذوقاً للأدب، ورسائل النور كافة، والمثنوي العربي النوري بخاصة، ناطقة بذلك شهادة عليه. وحسبنا شهادة شاعر تركيا الكبير محمد عاكف رحمه الله، في أستاذه بديع الزمان، حيث يقول: "إن شكسبير وهيغو وأضربهما لا يبلغان إلا مرتبة تلميذ بديع الزمان في الأدب والفلسفة".^(١)

٢. إن واقع الأدب في العالم الإسلامي، من طنجة إلى جاكارتا، كان في زمن النورسي يعيش حالة من الانسلاخ عن الذات، إما عن طريق اجتراح القديم اجتراحاً مسفهاً، دون وعي أو روح، وإما بسبيل التقليد الأعمى للغرب وأدبه، باسم التجديد، فكان الاغتراب والاستلاب والاضطراب، وعندنا في العالم العربي شواهد ناطقة، وهل كانت مدرسة أبولو، ومدرسة المهجر، ومدرسة الديوان، في معظمها، إلا عنواناً لذلك الاستلاب والاعتراب والاضطراب؟ لقد حدث

(١) بديع الزمان سعيد النورسي، نظرة عامة عن حياته وآثاره بقلم الأستاذ إحسان قاسم الصالح، ١٩٤٠.

نوع من الانبهار بما عند الغرب، فتغيرت بعض الأشكال الأدبية، إلا أنها حملت معها من معاني الانحراف الفكري والعقدي شيئا كثيرا، ولك أن تقرأ -إن شئت- طلاس ماضي لتتأكد من ذلك. إن الزخرف الفني الذي تزخر به هذه القصيدة ينطوي على فلسفية عدمية صارخة.

٣. لم تكن الصورة قائمة تماما، بل كانت هنالك أصوات تدعو إلى التجديد الأصيل، إن صح التعبير، يستمد مقوماته من ثوابت الأمة، مع استيعاب جلبي للحضارة الغربية، ولن يستطيع أحد أن يشكك في النورسي ولا في محمد إقبال، وهما من أشد الناس اطلاعا على ثقافة الغرب وحضارته وميراثه الفكري والأدبي، ولقد كان محمد إقبال يردد أنه خير الحضارة الغربية ثم خرج من تنورها كما خرج إبراهيم عليه السلام من نار النمرود. والمشابه بين النورسي ومحمد إقبال كثيرة جدا، مما نبينه في بحث آخر إن شاء الله.

وتفتح لنا سيرة النورسي الباب واسعا من أجل فهم موقفه من الأدب الغربي بخاصة، والمدنية الغربية بعامة، فهي سيرة تسعفنا في استخلاص منهج واضح تتحدد معالمه فيما يلي:

١. تكوين الذات

قبل الاطلاع على بضاعة الآخرين لابد من التزود الكافي من مقومات الذات. ولأن البحر عميق، والعقبة كؤود، كان لابد من الاطلاع الواسع إلى حد الإحاطة قدر الإمكان. وقد بدأ النورسي منذ صباه بحفظ متون أمهات الكتب الإسلامية، وفي فترة من الفترات "كان يقضي معظم أوقاته عند ضريح الشيخ أحمد الخاني، الأديب الكردي الشهير" مطالعا الكتب، متزودا من علومها.^(١)

(١) سيرة ذاتية، ص ٤٧.

وهذا يفسر لنا بعضاً من شخصية بديع الزمان الأدبية.

٢. التنوير

وذلك عن طريق الاطلاع على العلوم الحديثة، وعلى رأسها علوم الغرب، قبل إصدار الحكم عليها، وذلك من باب الاحتراس، خشية الوقوع في الزلل، عملاً بالقاعدة القرآنية الكريمة: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء: ٣٦).

وهكذا طفق يطالع كتب العلوم الحديثة، حتى استحصل على أسسها، من تاريخ وجغرافية ورياضيات وجيولوجيا وفيزياء وكيمياء وفلك وفلسفة وأمثالها من العلوم، وذلك خلال مدة قصيرة جداً، وسير أغوار هذه العلوم بنفسه دون معونة أحد، أو اللجوء إلى مدرس يدرسها إياه.^(١)

وكما جاء في السيرة التي أعدها الأستاذ إحسان قاسم: "إن مؤلف رسائل النور قد حدث له انقلاب مهم في حوالي سنة ١٨٩٩م (١٣٢١هـ)، إذ كان يهتم بالعلوم المتنوعة إلى هذا التاريخ لأجل استيعاب هذه العلوم والتنوير بها. أما بعده فقد علم... أن أوروبا تحيك مؤامرة خبيثة حول القرآن الكريم.. فثارت ثأثرته واحتد وغضب.. وغير اهتمامه من جراء هذا الانقلاب الفكري فيه.. جاعلاً جميع العلوم المتنوعة المخزونة في ذهنه مدارج للوصول إلى إدراك معاني القرآن الكريم وإثبات حقيقته. ولم يعرف بعد ذلك سوى القرآن هدفاً لعلمه وغاية لحياته".^(٢)

(١) سيرة ذاتية، ص ٦٢.

(٢) سيرة ذاتية، ص ٦٥.

٣. الفهم والتقويم

إن من شأن الاطلاع الواسع أن يعين على الفهم السليم، ويساعد على التقويم الموضوعي، إذا أوتي المرء موهبة وقدرة عقلية وصفاء قلبيا، مما يوفر سمة "الإنصاف" عند إصدار الأحكام.

ولقد كان النورسي رحمه الله تعالى، مطلعاً على ثقافة الغرب قديمها وحديثها اطلاعاً واسعاً وعميقاً، وآتاه الله ﷻ قدرة على الفهم والتقويم، فنظر نظرة موضوعية إلى الغرب تصيب كبد الحق. وقد أعلن موقفه من الغرب في عدد من المواضع، في رسائل النور، ومن ذلك ما جاء في صيقل الإسلام حيث قال في تشبيهه بليغ: "إن نهر العلوم الحديثة والثقافة الجديدة الجاري والآتي إلينا من الخارج كما هو الظاهر، ينبغي أن يكون أحد مجاريه قسماً من أهل الشريعة، كي يتصفى من شوائب الحيل ورواسب الغش والخداع. لأن الأفكار التي نمت في مستنقع العطالة، وتنفست سموم الاستبداد، وانسحقت تحت وطأة الظلم، يحدث فيها هذا الماء الآسن العفن خلاف المقصود.

فلا بد إذن من تصفيته بمصفاة الشريعة".^(١)

٤. الموازنة بين الأدبين

لما أدرك النورسي حقيقة هذه الثقافة القادمة من الغرب، راح يبين للناس هذا الأمر، عن طريق الموازنة بين الأدب الغربي والأدب القرآني.

والحقيقة أن النورسي لم يكن ينتقد الأدب الغربي فقط، بل إنه كان ينتقد الآداب الشرقية أيضاً، ومنها آداب الشعوب الإسلامية، تلك التي التفتت عن كنوز القرآن إلى قشور الكلام. وقد ضرب لذلك مثلاً بما حدث للأدب العربي

(١) صيقل الإسلام، ص ٥٣٠.

حين انجذب الأعاجم بجاذبية سلطة العرب، ففسدت بالاختلاط ملكة الكلام
المضري التي هي أساس بلاغة القرآن. ثم كان ما كان من انحراف عن روح
الأدب الرفيع في العصور المتأخرة، كما تجلّى في مقامات الحريري وما بعدها.
ولذلك كان لابد من العمل على أن يسترجع الأدب صفاءه ونقاءه،
مستجيباً لنداء الفطرة.

لقد أصاب الآداب ما أصابها نتيجة انهيار كاذب بالمدينة الحديثة التي لم
تستكمل شروطها التي تجعلها صالحة للاستخلاف الحضاري وذلك بسبب ما
لحقها من زيف وتدجيل. وبلا حجل ولا حياء، وضع الأجنبي لسانا كاذبا في
فم البشر.. وركّب عينا فاسقة في وجه الإنسان. وألبس الدنيا فستان راقصة
ساقطة. فمن أين سيعرف هذا الأدب الحسن المجرد؟

حتى لو أراد أن يري القارئ الشمس فإنه يذكره بممثلة شقراء حسناء. وهو
في الظاهر يقول: "السفاهة عاقبتها وخيمة، لا تليق بالإنسان". ثم يبيّن نتائجها
المضرة.. إلا أنه يصورها تصويرا مثيرا، إلى حد يسيل منه اللعاب، ويفلت منه
زمام العقل، إذ يضرّم في الشهوات، ويهيج النزوات.. حتى لا يعود الشعور
ينقاد لشيء".^(١) وقارن موقف النورسي عن السينما، منذ ما يزيد عن نصف
قرن، بما قالته الممثلة المعتزلة نسرین، مجلة المجتمع.^(٢)

إن مفهوم الأدب مرتبط بطبيعته ورسالته وأدبيته على السواء، فليس الشأن
في ميادين الأدب وموضوعاته فحسب، إذ ميادين الأدب وموضوعاته وأغراضه
قد تكون متشابهة، بل قد تكون واحدة، ولكن الشأن كله في الرؤية التي يصدر

(١) الملاحق، ملحق قسطنطين، النورسي، ص ١٨٧-١٨٨.

(٢) العدد ١٣٤١ ذو القعدة ١٤١٩هـ - مارس ١٩٩٩م.

عنها الأدب، وفي الأسلوب الذي يعبر به الأديب عن تلك الرؤية. وإذا كان النورسي يميل إلى التعريف عن طريق السلب لا الإيجاب، وذلك بنفي عدد من الصفات عن الأدب الغربي، فذلك يعني أن الأدب الحق هو الأدب الذي يشتمل على تلك الصفات ويتحقق بها. ثم إن الأدب الذي ينعى عليه بديع الزمان أسلوبه وطريقته هو ذلك الأدب الذي أطلق عليه الدكتور أحمد بسام ساعي أدب: "السامرية الجديدة"، فهو أدب يزعم الإصلاح، ولكنه باسم الواقعية، وباسم نقل الحقائق وتصويرها كما هي، يميل إلى تزوين الانحراف، ويحبب في السلوك المشين، فيكون لذلك الأسلوب فعل السحر في إثارة الغرائز البهيمية، وإضرار الشهوات، وإطلاق النزوات، فيكون في ذلك إشاعة للفاحشة وتزوين لها. وما ينتج عن ذلك كله هو الفرح الكاذب واللذة العابرة التي تورث الحزن، فيكون ظاهر ذلك الأدب التفاؤل والفرح، وباطنه التشاؤم والحزن المريض. وهكذا فإن "ما يورثه أدب الغرب هو حزنٌ مهموم، ناشئ عن فقدان الأحباب، وفقدان المالك. ولا يقدر على منح حزن رفيع سام.

إن استلهم الشعور من طبيعة صماء، وقوة عمياء، يملؤه بالآلام والهموم حتى يغدو العالم مليئا بالأحزان، ويلقى الإنسان وسط أجنب وغرباء، دون أن يكون له حام ولا مالك، فيظل في مأتمه الدائم..

وهكذا تنطفئ أمامه الآمال.

فهذا الشعور المليء بالأحزان والآلام يهيمن على كيان الإنسان، فيسوقه إلى الضلال، وإلى الإلحاد، وإلى إنكار الخالق.. حتى يصعب عليه العودة إلى الصواب، بل قد لا يعود أصلا.

أما أدب القرآن الكريم: فإنه يمنح حزنا ساميا علويا، ذلك هو حزن العاشق،

لا حزن اليتيم.. هذا الحزن النابع من فراق الأحباب، لا من فقدانهم".^(١)

وهكذا، فـ"الأدبان كلاهما.. يعطيان شوقا وفرحا.

فالشوق الذي يعطيه ذلك الأدب الأجنبي، شوق يهيج النفس، ويسط
الموس.. دون أن يمنح الروح شيئا من الفرح والسرور. بينما الشوق الذي يهبه
القرآن الكريم شوق تتهز له جنبات الروح، فتعرج به إلى المعالي".^(٢)

وهكذا نخلص، مع بديع الزمان، إلى أن "آداب المدنية وبلاغتها مغلوبة أمام
الأدب القرآني وبلاغته".^(٣)

ومن خلال تقارير بديع الزمان، في الملاحق وفي الكلمات على السواء،
نخلص إلى أن علينا أن نلتمس رفعة آدابنا وقوتها وغلبتها بالاغتراف من الأدب
القرآني وبلاغته، لا بالتطفل على موائد غيرنا من الآداب. فذخيرة القرآن الأدبية
لا تنفد، وقد كان سبب الارتكاس الأدبي عندنا معشر الشعوب الإسلامية، أننا
لم نستفد الاستفادة المرجوة من القرآن الكريم، أدبيا، أليس القرآن الكريم أحسن
القصص؟ فمالنا بقينا في غفلة عن بيانه وإعجازه قرونا؟ ومالنا لم نستفد من
براعته وبلاغته، فلم نطور فن القص عندنا؟ ولو فعلنا وأحسننا الإصغاء، لما كنا عالة
على الغرب، ننتظر أن تظهر عنده القصة والرواية ثم نسعى جاهدين إلى استنباطها في
أرضنا الأدبية، كأننا لم نقرأ يوما كتاب الله تعالى، ولم نستجل كنوزه:

كالعيس في البیداء یقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

إن حديث بديع الزمان الأدبي يكشف لنا عن أمور، منها هذا الأسلوب

(١) ملحق قسطنطين، ص ١٨٩.

(٢) ملحق قسطنطين، ص ١٩٠.

(٣) الكلمات، ص ٤٧٦-٤٧٧.

البديع الذي يعتمد التمثيل في تقريب الحقائق. فأدب المدنية الحديثة كبكاء اليتيم الذي فقد أبويه، فحزنه مرير قائم مدمر. وأدب القرآن كإنشاد العاشق العفيف، حزنه قصير الأمد شفاف، وغناؤه ملؤه الشوق والأمل.

والأدب والبلاغة، من حيث تأثير الأسلوب، إما يورثان الحزن وإما الفرح. وهذا ما سماه القدماء من نقادنا وفلاسفتنا حالي القبض والبسط.

والحزن قسمان: حزن مظلم كتيب مرده الضلالة، وناشئ عن فقدان الأحبة، وحزن سام متعال، ناشئ عن فراق الأحبة ولوعة الاشتياق. وهذا الحزن هو الذي يورثه القرآن الهادي المنير.

فإذا نحن نظرنا إلى الحزن الذي يسود أدينا المعاصر، وجدنا معظمه حزن المدنية المعاصرة، لا حزن القرآن الكريم، إنه حزن مدمر، مرتبط بالغربة في الوجود، وبالسأم العبثي.

والفرح أيضا قسمان: الأول يدفع النفس إلى شهواتها، وهذا هو شأن آداب المدنية، من أدب مسرحي وسينمائي وروائي.

أما الثاني فهو فرح لطيف بريء نزيه، يكبح جماح النفس ويلجمها، ويحث الروح والقلب والعقل على المعالي، وعلى موطنهم الأصلي، على مقرهم الأبدي، وعلى أحبتهم الآخرين. وهذا الفرح هو الذي يمنحه القرآن المعجز البيان.

٥. التنوير

عند ذلك، وبعد كشف تلك الحقائق، ينطلق بديع الزمان من التنوير إلى التنوير، أي من الاطلاع على ما عند الغرب والاستفادة مما عسى أن يكون فيه من خير، إلى دعوة الغرب نفسه إلى التزود من آداب القرآن، لأنه أدب كوني لا تحدّه حدود، ولأنه أدب يعبر عن آدمية الإنسان، في الصورة المثلى. وهذا معنى

من المعاني التي تستنبط من إشارة الأستاذ إحسان قاسم إلى أن بديع الزمان صار جاعلا جميع العلوم الشرعية المخزونة في ذهنه مدارج للوصول إلى إدراك معاني القرآن الكريم وإثبات حقيقته.

ويسعى بديع الزمان سعي المؤمن المستيقن من نصر الله تعالى، وغلبة نوره، فهو يتحدث عن روسيا بعد الحرب العالمية الثانية قائلا:

"لن تبقى روسيا بلا دين، ولا تستطيع ذلك، ولا تعود إلى النصرانية. فلربما تصالح القرآن، أو تتبع ذلك الكتاب المبين الذي يقصم الكفر المطلق، ويستند إلى الحق والحقيقة، وإلى الحجة والدليل ويقنع العقل والقلب".^(١)

فهل كان النورسي ينظر من وراء الغيب، بنور الله، إلى ما آل إليه أمر الاتحاد السوفياتي من تفكك وانحلال؟ ولم لا تكون دعوته الموسعة للناس جميعا واجدة طريقها إلى التحقق، أمام المتغيرات العظيمة التي يشهدها العالم؟ لقد انطلق النورسي بعد ذلك إلى الدعوة إلى أدب كوني، أدب يتحرر من الإذعان للخلق، بدعوى الالتزام، إلى أدب يتجلى بالإذعان للخالق وحده، فيتحرر البشر من كل ألوان العبودية ويدخلون في انسجام تام مع الوجود، ويتوجه بديع الزمان إلى الإنسان قائلا:

"دع الصراخ يا مسكين، وتوكل على الله في بلواك

إنما الشكوى بلاء

دع الشكوى، واغنم الشكر كالبلابل، فالأزهار تبتسم من بهجة عاشقها البلبل".^(٢)

(١) الملاحق، ملحق أميرداغ، ٢، ص ٣٤٨.

(٢) سيرة ذاتية، ص ٢٢٤.

هاهو بديع الزمان، مثل محمد إقبال، يريد للمسلم المجدد أن يكون كالبلبل،
لا يتعلق بغير مبدع الوجود، ولا ينطلق إلى التجديد إلا بعدما يأخذ للأمر عدته.
وقد قال محمد إقبال: "إنني يائس من زعماء التجديد في الشرق، فقد حضروا
في نادي الشرق بأكواب فارغة، وبضاعة مزجاة في العلم والفكر".^(١)
وكم بين إقبال والنورسي من مشابه.
ولذلك حديث آخر، إن شاء الله تعالى.

(١) روائع إقبال، ترجمة الشيخ أبي الحسن الندوي، ص ٧٦.